الحلقة (٤)

بقي علينا من أطوار هذا العلم طوران هما:

٣ - **طور النضج والكمال**: يعني أن النحو استوى على سوقه ووقف كاملاً تاماً ومؤلفاته صارت مستقلة وصارت شاملة جامعة مانعة لا يدخل فيها غيرها ولا يشذ عنها في الكثير وفي الغالب إلا قليل من المسائل النحوية التي لم تحتوِ عليها هذه الكتب في هذا الطور، فهو طور النضج يعني الاستواء والكمال لأنه بلغ القمة.

هذا الطور أيضا بصري كوفي وقد امتد ما صار في أواخر الطور الثاني امتد بهذا الطور وقد استمر الخلاف والنزاع بل اشتد في هذا الطور بين المدرستين المدرسة الكوفية والمدرسة البصرية.

وعقد لهذه المناظرات مجالس، كانت تحفل بها مجالس العلماء وقد ألف الزجاجي كتاباً سماه "مجالس العلماء"، حصل فيه ما حصل من نقاش وخلاف ومناظرات صارت في هذا الطور، بل في الأطوار التي سبقته وفيما بعده، لكن المهم أن هذا الكتاب كتاب قيم وله فائدة كثيرة صورت لنا مجالس العلماء التي كانوا يتناقشون فيها على كثير من المسائل.

إن بقي معنا وقتاً في هذه الحلقة سنذكر إن شاء الله تعالى بعض هذه المناظرات التي صارت إما بعناوين وإما ببعض التفصيلات التي حصلت فيها.

لكن نذكر أولا وقت هذا الطور وهو الطور الثالث وعنوانه النضج والكمال وقته من عصر المازني أبي عثمان إلى آخر عصر المبرّد، المبرِّد اسمه محمد بن يزيد بن مبرد توفي سنة ٢٨٦ هـ.

هذا الكلام الذي أقوله وهو أنه بدأ هذا الطور من عصر المازني إلى عصر المبرد كان في البصرة، أما في الكوفة فقد بدأ هذا الطور من عصر ابن السكيت إلى عصر أحمد بن يحيي ثعلب.

ما ميزات هذا الطور؟

قبل أن نتحدث عن ميزات هذا الطور أذكر لكم شيئا مشتركاً بين خاتمة المدرستين، يعني خاتمة الطور الثالث في مدرسة البصرة وخاتمة الطور الثالث في مدرسة الكوفة وهو أن بينهما اشتراكاً:

١ - **في الكنية**

آخر واحد من الطور الثالث اسمه أبو العباس المبرد في البصرة.

وآخر واحد من الكوفة اسمه أبو العباس ثعلب.

وإذا أطلق اسم أبي العباس عند البصريين فالمقصود به المبرّد واسمه محمد بن يزيد.

وإذا أطلق اسم أبي العباس عند الكوفيين فالمقصود به ثعلب واسمه أحمد بن يحيي.

هذا يعني من باب التسمية للفائدة.

وهناك اشتراك بين المدرستين أيضا في

٢- شخص يدعى بأبي عمرو في كل من المدرستين

واحد منهما هو أبو عمرو بن العلاء وهو إماما في المدرسة البصرية ومتوفى سنة ١٥٤هـوقد ذكرناه في الطور الأول من المدرسة البصرية، يعني في القسم الثاني من الطور الأول من المدرسة البصرية.

وأما أبو عمرو الكوفي فهو أبو عمرو الشيباني وكلاهما مشتركان في أنهما كانا عالمين نحويين لغويين.

وقد امتاز أبو عمرو بن العلاء البصري أكثر من امتياز أبي عمرو الشيباني الكوفي في النحو
وامتاز أبو عمرو الشيباني الكوفي في اللغة أكثر من امتياز أبي عمرو بن العلاء البصري في اللغة.
فلكل منهما ميزات وهذا أيضا من الموازنات بين المدرستين البصرية والكوفية.

فما ميزات هذا العصر ؟

ميزات هذا العصر أن التنافس اشتد بين المدرستين البصرية والكوفية فصار الحوار والمناظرات مستمرة، بل صار بعضهم يشنع على بعض وبعضهم يؤاخذ بعض وأصبح ما يشبه العداء بين المدرستين.
وأيضا شمر الجميع عن ساعد الجد وبدؤوا في التأليف في هذين العلْمين مستقلين عن بعضهما، أقصد علمي النحو والصرف فالنحو صار له مؤلفات مستقلة والصرف له مؤلفات مستقلة.
من أشهر علماء هذا الطور أبو عثمان المازني وأبو عمر الجرمي وأبو محمد التوَّزي وأبو علي الجرمازي وأبو حاتم السرجستاني والرياشي والمبرد وغيرهم هؤلاء في **البصرة**.
وفي الكوفة يعقوب بن السكيت ومحمد بن سعدان وثعلب والطوال وغيرهم، هؤلاء أشهر العلماء في هاتين المدرستين.
وقد كان من أبرز ما صار في هذا العصر أنه لم يصر يشارك النحو في التأليف شيء ولا يشارك الصرف في التأليف شيء، فكتب النحو صارت مستقلة لا يشاركها أي شيء وكتب الصرف صارت مستقلة لايشاركها أي شيء.
والقواعد التي بين أيدينا الآن هي القواعد الموجودة في ذلك العصر في الأعم والأغلب ولا يوجد، بعدهم في العصور التي تلتهم من أتى بقواعد جديدة إلا نزراً (قليلا جدا) أنه يأتي بقواعد جديدة غير ما ذكر إلى حدود الطور الثالث وهو طور النضج والكمال.
وهنا لأننا تعرضنا للخلاف بين المدرستين النحويتين البصرية والكوفية لابد أن نذكر لمحة عن أسباب هذا الخلاف:
ما سبب الخلاف النحوي وقد اشتهر هذا الخلاف حتى إنه قال بعضهم عجبت لنحوي يخطئ لأن عنده دليل في كل مسألة، أي مسألة تأتي بها إليه يقول هذه جائزة أو هذه كذا ثم يأولها ثم يأتي لها بدليل بسبب ما صار بينهم أو بين المدرستين ثم استمر على عدد من العصور هذا الخلاف.. ← **فما سببه:**
١- طبعا كان لمجرد الرغبة في الوصول إلى الحقيقة واستمر كذلك عند معظمهم أي الرغبة في الوصول إلى الحقيقة فإذا ظهر رأي للمدرسة البصرية ولكن الرأي الآخر ينافسه في المدرسة الكوفية فإنه يجمع من الأدلة ما يؤيد أو ما يذهب بنا بالوصول إلى الحقيقة ليس غير، ليس رغبة في التعالي على أهل المدرسة الأخرى وليس رغبة في إظهار النفس بالمكانة العالية، لا ليس هذا موجودا في بداية الأمر ومعظم الوقت الذي تلاه.
أما في بداية الأمر فقطعا لم يكن الخلاف موجودا إلا بسبب الرغبة في الوصول إلى الحقيقة وهو السبب الأول.
٢- وجود الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية الرغبة في إظهار مكانة العالِم.
يعني حينما يخالف في مسألة ما فهو لا يعني بها أنه يريد الوصول إلى حقيقة ما علمية، لا، ولكنه يريد أن يقال هذا فلان خالف في المسألة الفلانية ورأيه كذا فيبدأ يجمع أدلته ليؤيد رأيه وفي بعض الأحيان ينجح وفي بعض الأحيان لا ينجح.
٣- التعصب للبلد الذي تنتمي إليه أو ينتمي إليه العالم فإذا رأى البصريون العالم منهم قد ذكر مسألة خالفه فيها بعض الكوفيين فإنهم يقفون صفاً إلى جنبه حتى لو رأوا أنه ربما الرأي الثاني أصح وأقوى، ومع ذلك يقفون معه بسبب التعصب، فأهل البصرة يقفون مع أهل البصرة والكوفة مع أهل الكوفة.
٤- الرغبة في الحصول على المال وهذا سبب عجيب..كيف؟

يقولون إنه كانت تعقد مجالس عند الولاة، ولاة الأمصار، ويحضرها العلماء، وفي بعض الأحيان يذكر عالماً ما مسألة ما، فيطلب منه الاستدلال لها، فإن وجد الأدلة حاضرة ذكرها، وإن لم يجد الأدلة حاضرة بحث عنها حتى يجد ما يكفيه ليكون دليلاً لهذه المسألة.

وإذا استدل لهذه المسألة وصارت مسألة نجح فيها وفي بيانها، فإنه يحصل بناء على هذا من الوالي أو من الخليفة على شيء من المال وهذا يقال إنه كان يحصل في بعض المجالس.

← ما السبب الذي غلب في ظهور الخلاف؟ عندنا أربعة أسباب ذكرناها فما السبب الأقوى؟

مما لا أشك فيه أن السبب في وجود الخلاف في الأعم الأغلب في هذه الأطوار كلها إنما هو في الرغبة في الوصول إلى الحقيقة.

ونحن ننزه ونرفع العلماء الكبار عن أن يكونوا متعصبين فقط، أو راغبين بالحصول على المال، أو راغبين في إظهار النفس أو مكانتها ومعزتها، هذا الذي نحسبه والله حسيبنا وحسيبهم ولا نزكي على الله أحدا.

← ماذا نتج عن هذا الخلاف ؟

الذي نتج عن هذا الخلاف أن البصريين كان لهم منهج خاص في بناء القواعد وفي الاستشهاد لها، وكان للكوفيين منهج خاص في بناء القواعد والاستشهاد لها.

فالبصريون حازمون متشددون لا يرضون بالشاهد ولا الشاهدين ولا الثلاثة لبناء قاعدة واحدة وإنما يحشدون عدداً كبيرا من الشواهد ليقيموا قاعدتهم.

وفي حين كان يتنازل الكوفيون عن الشواهد الكثيرة إلى أن يصلوا إلى شاهدين أو ثلاثة فيبنون بناء على هذين الشاهدين أو الثلاثة قاعدة نحوية.

← ما النتيجة؟

١- النتيجة أن النحويين البصريين قواعدهم قليلة ولكنها قواعد ضخمة وكبيرة.

وقواعد الكوفيين كثيرة ولكنها قواعد صغيرة.

٢- من منهج البصريين أيضا (فقد صارت مدرسة كوفية ومدرسة بصرية كل واحدة لها منهج معين) أنهم لا يعتمدون إلا على قبائل محددة من العرب، ولو وجدوا عدداً من الشواهد كبيراً عند قبيلة لا يعتدون بها فإنهم لا يأخذون منها وإنما يأخذون من قبائل معروفة محدودة.

في حين تسامح الكوفيون قليلاً فأخذوا عن القبائل المعروفة لأنها لم تختلط بالأعاجم وعن بعض القبائل الأخرى التي اختلطت بالأعاجم.

٣- البصرة كانت قريبة من البادية التي لم تختلط بالأعاجم ولذلك كانت شواهدهم كلها أو على الأقل جلها فصيحة صحيحة، لم يتطرق إليها اللحن ولم يتطرق إليها الفساد

في حين أن الكوفيين كانوا بالطور الأول من التأليف بالنحو مشغولين بجمع الشواهد من قبائل العرب المختلفة فصار الحشد وافراً عندهم من الشواهد واستطاعوا بهذا أن يبنوا ويجدوا لقواعد كثيرة شواهد كثيرة وأحيانا تكون قليلة ولكنهم من منهجهم أن يعتمدوا على الشواهد القليلة.

← ما الفائدة من هذا الخلاف ؟

الفائدة من هذا الخلاف: أن التنافس بين المدرستين جعل كل مدرسة تبذل قصارى جهدها في الاتصال بالأعراب وفي مشافهتهم وفي الأخذ عنهم وفي محاورتهم وفي سماع أخبارهم وقصصهم ونوادرهم ليجمعوا لنا مادة كبيرة جداً استطاعوا أن

يبنوا عليها هذا الصرح العظيم جدا وهو صرح النحو.

واستطاعوا بهذا التنافس الشديد أن يجمعوا من نواحي متعددة كثيرة من العرب وجمعوا لنا شواهد كثيرة غزيرة.

وهذا أيضا يسهل علينا أمرنا نوعاً ما، بحيث أنك لا تستطيع دائما أن تقول للشاعر لحنت، أو للخطيب لحنت حتى تتأكد هل هذا الرأي له ما يدعمه ؟ هل له شواهد أوردها الكوفيون أو أوردها البصريون أو اختلفوا فيها؟

نعم هذا سهل على الناس كثيراً، بحيث أن اللغة صارت من سعة ما جمعوا من الشواهد يستطيع الشاعر أن يقول كلمة والخطيب أن يقول كلمة؛ فلا يُلَحَّن حتى يتأكد من أنها لم ترد عند المدرستين البصرية أو الكوفية.

➔ هل تساهل البصريون أحيانا وتشدد الكوفيون أحيانا؟

نعم وقد جمع بعض الزملاء شواهد كثيرة من هذا القبيل تساهل فيها البصريون وتشدد فيها الكوفيون، لكن الغالب العكس.

الغالب أن التشدد يأتي من جهة النحويين البصريين وأن التساهل يأتي من جهة النحويين الكوفيين.

٤- طور الترجيح والبسط بالتأليف: فما معناه أولاً وأين مكانه ؟

نقول أما معناه فإن العالم بهذا الطور وبعد انتهاء الأطوار الثلاثة في التأليف في النحو صار ينظر إلى ماقاله الأولون ولا يبني قواعد جديدة لكنه ينظر إلى ما حصل فيه خلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فيرجح ما يراه راجحاً بالدليل.

يجمع لهذا أدلته ويجمع لهذا أدلته فما قوي عنده الدليل أخذ به فصار هذا مرجحاً له، وصار عملهم إنما هو الترجيح بين المسائل.

الترجيح فقط؟لا بل قاموا إلى كتب السابقين فبسطوا هذه الكتب، كيف يبسطونها ؟

يعني يشرحونها بتوسع، المؤلف الأول في مسألة من المسائل لم يستدل لها، يجيء من بهذا الطور فيستدل للمسألة التي ترك دليلها السابق له.

المؤلف الذي في الطور الثاني أو الثالث جاء بدليل واحد أو اثنين لمسألة ما، يأتي هذا الذي جاء في الطور الرابع فيأتي بأربعة أدلة أو خمسة أدلة أو نحو ذلك.

هذا معنى قولنا أن هذا الطور هو طور الترجيح والبسط في التأليف.

فأين مكانه ؟

لم يعد مكانه في الكوفة ولا في البصرة، فقد زحف الناس زرافات ووحداناً ليذهبوا إلى مقر الخلافة التي صار مقرها بغداد.

فصاروا كلهم أو جلهم تركوا البصرة أو الكوفة لأنها صارت أماكن فتن، وانتقلوا بعدها إلى بغداد التي فيها الاستقرار والعيش الرغيد وفيها أشياء كثيرة مما يفتقدونه في البصرة والكوفة.

واستقروا في بغداد – أعني البصريين والكوفيين العلماء منهم في هذا المجال استقروا هناك- من يسمون بالبغداديين كانوا لا يميلون لا إلى البصرة ولا إلى الكوفة وإنما صاروا يأخذون ما يقوى عندهم من المدرستين البصرية والكوفية.

لم يكن النحو خاصاً ببغداد بل كان موجوداً في الشام في دمشق وغيرها، وكان موجودا في قاهرة المعز وفي غيرها من بلدان مصر، وكان موجودا في المغرب العربي وكان موجودا بشكل كبير أيضا في الأندلس، لأنه من عهد عبد الرحمن الداخل الذي دخل الأندلس وسمي بصقر قريش، بدأ الناس يرحلون من الشرق إلى الغرب، لرفاهية العيش الموجود في الأندلس ولحلاوته ولما كانت تعرف به من ثراء وغيره.

فانتقل الناس من المشرق إلى المغرب بل أن أهل البلد أنفسهم، أعني أهل الأندلس لما رأوا أن الغلبة للمسلمين والعرب قاموا

فاهتموا بلغة العرب وصاروا مؤلفين فيها وصاروا يجادلون ويتقوون فيها.

أقول في الأندلس لم يكن الأمر خاصاً بمن رحل إليهم من الشرق، بل كان أيضا من أهل المغرب أنفسهم من أهل الأندلس نفسها من اهتم بلغة القرآن الكريم ومن اهتم بعلوم الدين الإسلامي، لأن الناس تبعاً للغالب، فما دام الذين يحكمونهم هم من العرب والمسلمين فلابد أن تكون اللغة السائدة هي لغة العرب، ولا بد أن يكون الدين السائد هو الدين الذي استولوا على هذه البلاد، فكان الدين الإسلامي هو مجال الدراسات والمؤلفات وكانت اللغة العربية مخدومة في هذا البلد خدمة عظيمة.

🡐 هل حصل خلاف بين المدرسة الأندلسية والمدارس الأخرى؟

نعم، ولهم منهج خاص بهم، ولهم مؤلفون كثر، ومن أشهر الأندلسيين صاحب الألفية محمد بن مالك رحم الله الجميع، التي كان أصلها الكافية الشافية، وكانت مكونة من ثلاثة آلاف بيت، ثم اختصرها فصارت في ألف بيت رحم الله الجميع